الفصل التاسع

الوسائل العلمية

الكتب والرسائل

● الكتب والرسائل وسائل فعالة راقية للدعوة . وهي من أهم معالم تطور الخطاب الديني الإسلامي الحديث .

- وقد أصدر العلماء المسلمون المحدثون الكثير من الكتب والرسائل في المجالات العلمية المختلفة . ولمع بعضهم أكثر من غيره ، واستمر تأثير مؤلفاته بعد وفاته سنين عدداً .

- ومن هؤلاء أذكر (بعض الأسماء ولا أحصيهم) الشيخ محمد بن عبدالوهاب والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والأستاذ مصطفى صادق الرافعي والدكتور محمد حسين هيكل والشيخ محمد أبوزهرة ، وسيد قطب ومالك بن نبي والدكتور محمد عبد الله دراز والشيخ محمد الغزالي والأستاذ محمد جلال كشك والأستاذ خالد محمد خالد والدكتور عبد الرحمن بدوي (بعد أن تاب وأناب) .

- وهناك أعداد كبيرة من المؤلفين من الطبقة الثانية . كما أن هناك رسائل جامعية عديدة نشرت ، إسلامية ودعوية .

- لكن كل هذه الكتب والرسائل لا تكافئ ما نشره العلمانيون وما ترجموه عن الإنجليزية والفرنسية وغيرهما ، وكثير من مؤلفاتهم تعمل في الاتجاه المعاكس للدعوة الإسلامية . والمكتبات وخزائن الكتب مكتظة بما ينشرونه !

- ولو أننا أجرينا إحصاءات للمؤلفين العرب المحدثين لوجدنا أن أصحاب التوجهات الحداثية والعلمانية أكثر عدداً وأوفر إنتاجاً . وسبب ذلك وجود دور

نشر قادرة وقوية ، رسمية وأهلية ، ترحب بكل ما يكتب عن الحداثة والآداب والفلسفات المادية ، في حين يندر وجود دور نشر إسلامية قادرة ، غنية ، تكافئ المؤلف وتوزع كتابه . وأفضى هذا الوضع إلى حد أن صار المؤلف المسلم ينشر إنتاجه على نفقته . وذلك أمر لا يقدر عليه إلا القليلون . وأحجم كثيرون عن التأليف لأن من غير المعقول أن يقضي الكاتب سنة من عمره في إجراء بحث لكي يضع مخطوطته في خزانة كتبه . وإني لأتمنى أن تُبحث هذه المشكلة وأن تعرف طريقها إلى الحل ، خدمة للدعوة الإسلامية .

● وأصدر الدعاة الكبار من غير العرب العديد من الكتب والرسائل . وربما كان الأستاذ المودودي أغزرهم وأعمقهم جميعاً . فقد أصدر حوالي ٦٨ كتاباً ورسالة ، منها ما جاء في ثلاثة أجزاء ، عالج فيها علوم القرآن والحديث ، والعلوم الإسلامية الأساسية ، وعلم السياسة ، والدستور والقانون ، وعلم الاجتماع ، والتعليم ، وعلم الاقتصاد وشئون المجتمع[١] .

● وتُرجمت مؤلفات المودودي من الأردية إلى ٢٢ لغة ، منها العربية (٤٨ كتاباً) ، والإنجليزية (٣٤ كتاباً) ، والبنغالية (٤٢ كتاباً).[٢] وقد لقيت رواجاً واسعاً لما اتسمت به من الأصالة والدقة ، والحيوية والوضوح .

– وبهذه المؤلفات أدَّى المودودي خدمة هائلة للدعوة الإسلامية في العصور الحديثة ، على مستوى العالم أجمع . وتراجعت أمام كتاباته الدعوات المضادة : المادية الملحدة الوافدة من الغرب ، وحركات الردة الحديثة : القاديانية (أو الأحمدية) ، والبابية والبهائية .

● وأعادت مؤلفات المودودي الثقة لدى الطبقة المثقفة المسلمة في إمكان البعث الإسلامي ، وتطبيق الإسلام كاملاً شاملاً ، دون بتْر أو اجتزاء أو انتقاء ، بعد سيادة الاجتزاء في العالم الإسلامي ، وإحلال الثقافة الأوربية محل الثقافة الإسلامية في الكثير من بلاد المسلمين .

---

(١) فاروق عبد السلام الصاوي ؛ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ؛ ص ١٩٧-٢٠١ .
(٢) نفسه ؛ ص ١٦٧ .

- بل بوسعنا أن نقول إن القادة الكبار في العالم الإسلامي تأثروا بمؤلفات المودودي ؛ ولا يزال هذا التأثير واضحاً في كتابات الكثيرين منهم ، وفي الرسائل الجامعية لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه .

● وألَّف المهتدون إلى الإسلام من الغربيين العديد من الكتب التي جذبت آلاف المهتدين إلى الإسلام ، وأنارت الطريق لملايين المسلمين من جميع الأجناس ، بما فيهم العرب .

- ومن أمثلة أولئك الكُتَّاب الدعاة الكبار محمد أسد ، الألماني الجنسية ، الذي كان قد نشأ على اليهودية ، ثم هداه الله إلى الإسلام عام ١٩٢٦م . وقد كتب روائع أدبية ودينية مبهرة ، منها كتابه : «الطريق إلى مكة» الذي تُرجم إلى العربية وإلى عدد من اللغات الأوربية . وألف كتابه البديع العميق : «الإسلام على مفترق الطرق» ، حيث حذر المسلمين من الأخطار الحديثة ، ووصف السبيل إلى النهضة المرجوة .

- واقْتَفَتْ «مريم جميلة» أثر «محمد أسد» ، وكانت ألمانية يهودية مثله ، ثم هداها الله إلى الإسلام سنة ١٩٦٢ ، وهاجرت إلى باكستان مُخَلِّفة وراءها زخرف الحياة الأمريكية الصاخبة . وكتبت «جميلة» عدداً من المؤلفات باللغة الإنجليزية ، ولم تكف لحظة عن الكتابة للإسلام حتى بعد أن تزوجت من ناشر مؤلفاتها ، وأنجبت أولاداً ، فصارت لها مكتبة ثرية ، تصدت فيها للفلسفات المادية والعلمانية ، وفضحت وكلاءها في العالم الإسلامي . ومن أهم مؤلفاتها : «الإسلام والحداثة» و«الإسلام والمجتمع الغربي» و «الإسلام ضد أهل الكتاب» و «الإسلام في النظرية والتطبيق» و «الحضارة الغربية تدين نفسها بنفسها» .

- ومن ألمانيا أيضاً برز كاتب مرموق ، يدعو إلى الإسلام دون كلل أو ملل ، هو الدكتور مراد هوفمان الذي كان سفيراً لألمانيا في المغرب ، واعتنق الإسلام سنة ١٩٨٠م ، وجَنَّد ثقافته الواسعة للدعوة للإسلام في الغرب ، فسافر من بلد إلى بلد يحاضر لشرح الإسلام ، ويناقش ويحاور للإسلام في ندوات ومؤتمرات عديدة ،

وقد ألف للدعوة : «الإسلام هو البديل» و «يوميات ألماني مسلم» و «نهج فلسفي لتناول الإسلام» و«ديانة في صعود» . وكتب عشرات المقالات بالألمانية .

● ومما يثير الإعجاب بهؤلاء الدعاة العظام صفاء عقيدتهم الإسلامية من كل الأكدار والشوائب التي غالباً ما تظل عالقة بفكر المهتدين الغربيين إلى الإسلام بتأثير التربية الغربية والمناخ الفلسفي المادي المسيطر في الغرب .

- وقد وصف الدكتور مراد هوفمان تجربة مدهشة قام بها البروفيسور «فلاتوري» ـ مدير أكاديمية العلوم الإسلامية في ميونخ ـ وزميلته البروفيسورة «توروشكا» ـ وهي غير مسلمة ـ إذْ كرس الأستاذان الكبيران عشر سنوات كاملة من سنة١٩٨٥ إلى سنة ١٩٩٥ : «لتحليل ما يمكن أن يجده المرء من معلومات عن الإسلام بالكتب المدرسية باللغات الألمانية والهولندية والإيطالية والدانمركية في مواد الدين والتاريخ والجغرافيا . وكانت النتيجة مذهلة حيث وُجد أن تلك الكتب تصور رجل الدين المسلم على أنه طاغية ، منتقم ، وأن أتباعه من المسلمين يخضعون له تمام الخضوع ، خاصة في حربهم ضد المسيحيين في أية فرصة تتاح لهم».! ولم تكن هذه هي الصورة الزائفة الوحيدة . وكتب الأستاذان الكبيران تصحيحات وافية لتلك الصور الزائفة ، وأرسلا ٤٦٠٠٠ كتيب بالبريد الموصى عليه إلى المدارس والجامعات ودور النشر ، على أمل تصحيح المواد التي تدرسها أو تنشرها عن الإسلام والمسلمين[١] .

- وأحسب أن الأستاذين الكبيرين قد تابعا عملية التصحيح في المدارس والجامعات ، وهل حدثت استجابة أم لا .

- والمفروض أن يحرص المسلمون الذين يشاركون في حوار الحضارات وفي الحوار الإسلامي المسيحي ، وفي الاتصالات الثقافية والدبلوماسية على الاطلاع على تلك الكتيبات القيمة ، وأن يسألوا كل من يتصل بهم من الأوربيين عن مصيرها ، وهل تم التصحيح أم لا . ونحن المسلمين متهمون بعدم قبول «الآخر»

---

(١) جريدة الأهرام اليومية في ١٩٩٥/٣/٢٥ .

في حين أن «الآخر» يعلِّمُ أبناءه كراهية الإسلام والمسلمين بتشويه صورتهم في الكتب الدراسية والإعلام ! وسيكون موقف الطرف المسلم قوياً جداً في أية اتصالات من هذا القبيل .

الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية

● والترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية يمكن أن تصبح وسيلة دَعَوية فعالة . فالشعوب الغربية عامة لا تزال تحرص على القراءة ؛ ولدى الكثيرين منهم حب استطلاع قوي يدفعهم إلى شراء الكتب الثقافية . وبعد تكثف العلاقات بيننا وبينهم تضاعف اهتمامهم بالإسلام وثقافته . وهم لا يجدون إلا القليل من الكتب الإسلامية الرصينة التي تقدم الإسلام تقديماً علمياً أكاديمياً موضوعياً .

● وللأسف ، يتعرض الأطفال الغربيون منذ الطفولة الباكرة لتأثيرات تربوية كنسية سلبية من خلال الكتب التي يدرسونها في «دروس الأحد» ثم في المراحل المختلفة من التعليم العام .

● وقد وصف السيناتور الأمريكي «بول فندلي» دروس الأحد التي يتلقاها الأطفال الأمريكيون الصغار في كثير من الكنائس الأمريكية والتي تصور المسلمين والعرب على أنهم أمة بدوية صحراوية همجية ، والتي اكتشف الرجل بعد أن عرف الإسلام ، أنها كانت زائفة ومشوهة ، وصوَّر ذلك في كتابه : «لا سكوت بعد اليوم»[1] وهؤلاء الصغار يصعب أن يتخلصوا من تلك الصور الزائفة عن الإسلام ، خصوصاً إذا واصل الإعلام والتعليم تدعيمها في عقولهم . وبعض أولئك الأطفال صاروا مؤلفين ومخرجين سينمائيين ، ونقلوا دروس الأحد الكنسية إلى الأفلام والمسلسلات والكتب والصحف اليومية . وتأثر السياسيون بهذا كله!

● ولابد من وسيلة فعالة لمواجهة ذلك البهتان ضد ديننا الحنيف . والكتاب الإسلامي العلمي الموضوعي هو الوسيلة الفعالة المطلوبة على المستويات الثقافية المختلفة . وعلى الجهات المسئولة في بلاد المسلمين تقديم الكتاب المنشود ،

---

(١) نشرته جريدة الحياة الدولية مسلسلاً ابتداءً من ٢٠٠١/٩/١ .

تأليفاً وترجمة باللغات الأجنبية . وأنا أكرر اقتراح إنشاء مؤسسة إسلامية للنشر والتوزيع تقوم بهذه المهمة . حقاً هناك دور نشر خاصة تنشر كتباً وكتيبات إسلامية ، لكنها ضعيفة وهي شركات تجارية تنشد الربح ، وليس بوسعها نشر مؤلفات علمية كبيرة وعميقة . المؤسسة المقترحة هي التي تستطيع ذلك ، لأنها لا تبغي الربح ، بل توصيل الحقائق الإسلامية إلى شعوب العالم . ومن أجل ذلك ، ربما تهدي عشرات النسخ إلى كل مكتبة جامعية ، وتزود الأقسام العلمية في الجامعات بالمراجع الأساسية عن الإسلام . وربما استطاعت توصيل تلك المراجع إلى مكتبات الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، ومراكز البحوث المختلفة ، لتكون في متناول أي باحث يريد أن يكتب عن الإسلام .

● وقد يرى البعض أن الكتب المؤلفة خصيصاً لغير المسلمين أفضل للتعريف بالإسلام . لكن مثل هذه الكتب ربما لا تحوز ثقة القارئ غير المسلم ، فقد يساوره الشك فيقول إنها دعائية لا موضوعية . وأما الكتب المترجمة فلا يمكن أن تكون محل شك من ذلك القبيل . غير أن الترجمة لها مشكلاتها العويصة ، وخاصة ترجمة النصوص الدينية ؛ وتحذر دراسات حديثة عديدة من مخاطر الترجمة الدينية والثقافية عامة : « فالألفاظ والجمل لا تتكافأ في أحسن الأحوال إلا جزئياً فقط». كما يقول إيزوتسو[1]. وقد سبق علماء الإسلام « إيزوتسو » بزمان طويل ، حين قرر الشافعي ثم ابن قتيبة ، والشاطبي والغزالي والرازي أن ترجمة النصوص الدينية إلى الفارسية وغيرها من اللغات الأجنبية ، تقريبية ، ولا يوثق بها . وربما استطاع خبراء المؤسسة المقترحة تفضيل الترجمة أحياناً ، والتأليف أحياناً أخرى ؛ وقد ينشر النص العربي مع الترجمة لإزالة أية شكوك ممكنة .

– ويجب أن نتذكر أن لدينا في العالم العربي أعداداً من العلمانيين الذين يعملون بكل جد ونشاط لترجمة كتب الثقافة الأوربية ونشرها ، وأن هناك

---

(1) Toshihiko Isutsu; Ethico-Religious Concepts in the Qu-ran; p . 315; Mcgill . University Press; Canada; 1966

مؤسسات مخصصة لنشر تلك المترجمات وبيعها بأسعار رخيصة . ووُضِعت مشروعات فردية للترجمة ومشروعات حكومية كما حدث في مصر في النصف الثاني من القرن الماضي ، مثل مشروع «الألف كتاب» . وهذه الجهود تصب في صالح المكونات الأجنبية في «الهجين» الثقافي الذي يصبغ حياتنا عامة .

● ومن الجوانب السلبية في قضية الترجمة انتقاء الأوربيين لبعض الأعمال الأدبية ، من الروايات والمسرحيات العربية التي تصور المسلمين في صورة مزرية ، وخصوصاً الشيوخ والعلماء المسلمين ، وتزعم وقوع الفواحش والموبقات في مساجد المسلمين! وعلاوة على تشويه صورة المسلمين في تلك المترجمات ، ظهر أثر آخر ضار على توجهات الكُتاب . فما دامت تلك المؤسسات تنتقي تلك النوعية من الروايات ، وتُغدق الأموال على مؤلفيها ، كان من الطبيعي أن يميل بعض الكُتَّاب إليها ، ليفوزوا بالأجر السخي ، ويفخروا بأن أعمالهم تُرجمت إلى الفرنسية والإنجليزية !

فإذا انعكس الوضع ، وشرعنا في ترجمة الروايات الراقية التي تصور حياتنا على حقيقتها ، سنجد أن بعض الكُتاب قد تحولوا إلى الكتابة بالمواصفات الإسلامية . وهذا كسب مركب : للكاتب ، وللأمة المسلمة ، وللأجانب الذين سيتمكنون من معرفة أمتنا على حقيقتها .

تحقيق التراث

وتحقيق التراث الإسلامي وسيلة مفيدة للدعاة ، خصوصاً النخبة الأكاديمية التي تؤلف الكتب الإسلامية . وقد أقبلت الجماهير المسلمة التواقة لمعرفة الإسلام على شراء الكتب التراثية إقبالاً كبيراً . واستندت المؤلفات الإسلامية الحديثة في مختلف العلوم إلى المصادر التراثية التي تم تحقيقها ونشرها . وهكذا أثبت تحقيق التراث أنه وسيلة مهمة للدعوة الإسلامية . حقاً إن المحقق للتراث لا يقوم بالدعوة ، ولا يتصل بالجماهير ، ولكنه يزود الدعاة بالمواد العلمية الأساسية والضرورية المطلوبة للدعوة على المستوى العلمي الأساسي .

● واشتهر من المحققين للكتب عدد من العلماء ، منهم :

- محمد محيي الدين عبد الحميد ، والشيخ محمود شاكر والدكتور محمد رشاد سالم ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن ، والشيخ محمد بن قاسم (الذي صحح كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية : «بيان تلبيس الجهمية» وأكمله وعلق عليه) والشيخ محمد ناصر الدين الألباني والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي والشيخ أحمد محمد شاكر .

- وهذه ليست إحصائية ، فهناك أسماء أخرى عديدة أسهمت بجهود مضنية في تحقيق التراث الإسلامي ، جزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

● ويحدث في مجال تحقيق التراث مثلما يحدث في مجال التأليف والترجمة ، أعني أن الحداثيين يحققون كتب التراث التي تدعم التوجهات المنحرفة ، مثل كتب غلاة الصوفية ، وكتب الفلسفة ، والأدب الماجن ، والفكر الخارجي . فهذا هو الإفراز الصديدي «للهجين» الثقافي في كل جوانب الحياة الثقافية والعلمية .

- وكان الشيخ محمد عبده قد دعا إلى كسب المعارف الإسلامية من الينابيع الأولى للدين ، أي من الكتاب والسُّنة . وهذا يعني إغفال المصادر التراثية . وكانت غايته من وراء ذلك تجنب الخلافات التي ثارت بين الفرق الإسلامية ، وخرجت بهم عن مقاصده وبعُدت بهم عن حده[1] .

- وشرح الشيخ رشيد رضا الموقف فقال : «لَسْنا نعني ببطلان التقليد أن كل مسلم يمكن أن يكون كمالك والشافعي في استنباط الأحكام الاجتماعية في أبواب الفقه كلها ، فينبغي له ذلك ، وإنما نعني أنه يجب على كل مسلم أن يتدبر القرآن ويهتدي به بحسب طاقته»[2] . فهذا المنهج لا يحرِّم الرجوع إلى التراث والاستفادة منه ، ولكنه يعارض الاكتفاء بكتب الشيوخ المباشرين ، كما كان يصر فقهاء القرن التاسع عشر في الأزهر .

---

(١) رسالة التوحيد ؛ دار الهلال ؛ بالقاهرة ؛ ص ٤١ .

(٢) تفسير المنار ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ؛ الجزء ٥ - العدد ٢٣ ص ٢٤١ .

● وقد استقر الأمر مؤخراً على المنهج القويم الذي يجمع بين استمداد المعرفة من الكتاب والسنة مباشرة ، مع الرجوع إلى المصادر التراثية التي تشرحهما . ذلك لأن الاكتفاء بكتب التراث يباعد بين الباحث وبين التنزيل ويحرمه من التأثر بإعجازه ؛ والاكتفاء بالاستمداد من الكتاب والسنة يحرم الباحث من جهود العلماء المسلمين على امتداد القرون ، حتى يبدو وكأنه يحاول إعادة اختراع البارود . وهل يجوز عقلاً إغفال جهود الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل في الفقه وأصوله ، والحديث وعلومه؟! إن هذا الإغفال معناه الحكم بالطفولة الأبدية على علومنا الإسلامية !

- لكن من الواجب التمييز بين الغث والثمين في تراثنا العربي الإسلامي . فهناك مصادر تراثية منحرفة وضارة بالتقدم العلمي والدعوي الإسلامي ، وقد وَجَدَت من يُعنى بتحقيقها ونشرها على أوسع نطاق ، مثل كتاب «الأغاني» للأصفهاني ، وكتاب «الفتوحات المكية» لمحيي الدين بن عربي ، ومؤلفات الغلاة من الصوفية وأتباع الفرق الإسلامية والفلاسفة والمتكلمين والشعراء المُجَّان .

الأقراص - أو CD - تزاحم المطبعة !

● وفي العصر الحالي دخلت الأقراص أو CD في منافسة شرسة مع الحرف المطبوع على الورق . وتعمل شركات ومؤسسات ضخمة على إفراغ محتويات الكتب بكل التخصصات في أقراص . ونالت العلوم الإسلامية نصيبها من اهتمام تلك المؤسسات ، والحمد لله ، ابتداءً من مستوى رياض الأطفال حتى الجامعة ، والموسوعات والمعاجم ، ولكن . . . . .

- عن طريق الحاسوب يستطيع المسلم أن يطلع على علوم دينية ، ودنيوية ، وعلى آداب وفنون كثيرة ، كما يمكن أن يتعرض للفساد والغواية في مواقع عديدة تحمل الفكر المادي المعادي للإسلام . وقد حَاوَلَتْ جهات إسلامية عديدة تشغيل مواقع إسلامية للدعوة ؛ كما أصدرت بعض الحكومات المسلمة قوانين تنظم عمل الشبكة الدولية ، وتمنع مشاهدة مواقع معينة تعرض الغواية والفساد على المسلمين ؛ فالشبكة الدولية (الإنترنت) نعمة ونقمة في آن !

الإفتاء

● ويلعب الإفتاء دوراً مهماً في نشر الإسلام الصحيح بين المسلمين . فإن الجماهير لا تكف عن السؤال عن الحلال والحرام ، خصوصاً في العصر الحديث ، حيث ظهرت أنماط جديدة من المعاملات المالية والتجارية ، ووردت مع الاستعمار الأجنبي أساليب في التفكير والتنظيم والعلاقات الاجتماعية . ويكفي أن نتذكر المعاملات الربوية التي دمرت الآلاف من التجار والمزارعين ، أو الفكرة الشعوبية التي كرَّست الانفصال السياسي بين البلاد المسلمة ، أو الدساتير التي تجسِّد النظم العلمانية في كافة مجالات الحياة ، أو تعاطي الدخان الذي وَجَدَ الفتوى بحلِّه ونُشرت صور لأحد المفتين الكبار والسيجارة في فمه !

- والحكومات في البلاد العلمانية تختار المفتين من بين العلماء ، وتحرص على أن يكونوا من المتعاونين معها . وعرف الناس هذا التوجه ، ففقدوا الثقة في المفتين ، واتجهوا إلى شيوخ يثقون فيهم ، أو إلى الكتب القديمة يبحثون فيها عن فتوى . وهكذا ظهرت الاضطرابات الفقهية ، نتيجة «للهجين» الثقافي السائد ، ووجدنا في معظم المشكلات فتوى متسقة مع السياسات العلمانية ، وأخرى مخالفة لها تتسق مع أصول الفقه الإسلامي ، واعتبر الناس أن الفتوى المتسقة مع التوجهات العلمانية خاطئة .

● وبحسب قواعد أصول الفقه ، على العوام اتباع قول المفتي ، إذا كان له حجة يستند إليها . والله تعالى يقول ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء:٣٦) ويقول ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾(البقرة:١١١) وليس بوسع العوام القيام بالاجتهاد ، لأن ذلك يصرفهم عن أعمالهم ، ويعطل الحرف والمهن الضرورية للحياة ، الأمر الذي يضطر العلماء إلى ممارستها بأنفسهم ، وترك البحث والدرس.[1] وبذلك تضطرب الحياة المهنية .

- وفي المسائل المعروفة ، والمشهورة ، لا يجد المفتي صعوبة في معرفة الفتوى والحجة التي يستند إليها ، لأنها موجودة في الكتب المعتبرة . لكن العصر

---

(١) أبو حامد الغزالي ؛ المستصفى ؛ ص ٥١٩ .

الحديث جَلَبَ مشكلات جديدة ، مثل أرباح المصارف الحديثة ، والهجرة إلى بلاد الكفار والإقامة بينهم ، والزواج من الكتابيات ، وبخاصة الإسرائيليات ، ونحن في حالة حرب معهم ، وحكم الفدائيين الذين يفجرون أنفسهم في الصهاينة ، وتأميم المصانع والأراضي الزراعية ، وحكم تدخين السجاير وتعاطي المخدرات ... إلخ .

● في هذه المسائل الخطيرة وغيرها لعبت الفتوى دوراً مهماً جداً ، لكنه كان لصالح الدعوة الإسلامية أحياناً ، ولصالح التيار العلماني السائد أحياناً أخرى .

- وأمامنا اليوم طريق صعب لبلوغ الثقة في الإفتاء لأن ذلك يرتبط بـ« الهجين » الثقافي ، وبهامش الحرية المتاح أمام المفتين . وقد رأينا في مصر كيف أن فتوى معارضة أطاحت بصاحبها من وظيفته ، وكيف أدت سياسة المسايرة إلى تثبيت صاحبها وترقيته إلى أسمى المراتب الدينية !

- ويصل الباحثون الأكاديميون إلى نتائج وتقريرات مستندة إلى براهين شرعية قوية ، وبذلك تعتبر فتوى ، ويجب الأخذ بها ، ويكون الباحث عندئذ مفتياً جزئياً . والاجتهاد في الجزء مشروع عند بعض المالكية وبعض الحنابلة ، والظاهرية[1] . وقد أفتى الإمام مالك ﷺ « في ست وثلاثين مسألة أو تزيد بقوله » لا أدري « وما قال ذلك إلا لِفَقْده العلم بالدليل ، وما زال بذلك وَصْفُ الإمامة عنه .. »[2]

● وهناك الإفتاء الجماعي الذي يصدر عن المؤتمرات الإسلامية والمجالس الإسلامية . وفي اعتقادي أن هذا الإفتاء أدق من الإفتاء الفردي ، غير أن الدول المضيفة للمؤتمرات كثيراً ما تفرض رأيها على المؤتمر ، كما حدث في أثناء الحرب بين العراق وإيران .

المؤتمرات

● والمؤتمرات العلمية العربية والإسلامية والعالمية تمثل تطوراً كبيراً في الخطاب الديني . وقد يقال إن المؤتمرات العالمية التي تضم مسلمين وغير مسلمين هي فقط التي تتيح فرصة للدعوة ، وإن المؤتمرات التي يحضرها مسلمون

---

(١) أبو زهرة ؛ أصول الفقه ؛ دار الفكر العربي ؛ ص ٣٧٥ -الفقرة رقم ٣٨٦

(٢) نفسه ؛ ص ٣٧٦ -الفقرة رقم ٣٨٧ .

فقط ليست دَعَوية . وهذا غير صحيح ، لأنها تتيح الفرصة لتبادل الأفكار والخبرات في المجال العلمي الذي تنعقد لبحث بعض مشكلاته ، فتُثري حصيلة كل داعية يسهم فيها . وهي تمارس الاجتهاد الجماعي الذي يجمع الاجتهادات الفردية السليمة ، ويستبعد الاجتهادات الخاطئة ، وتلك ضمانة ضد شطحات الأفراد . وأنا أذكر أن الشيخ الشعراوي رحمه الله أفتى في برنامج تلفازي بحُرْمة نقل الأعضاء البشرية ، غير أن مؤتمرات إسلامية تالية أجازته وشرطت له الشروط .

● واليوم تواجه المسلمين ، دعاةً ومدعوين ، معضلات يصعب على العالم الفرد أن يفتي فيها ، مثل الحروب بين البلاد المسلمة ، وحكم الجنود الذين يُقتلون فيها ؛ وفي المجال الاقتصادي ظهرت معاملات وَصَفَها البعض بأنها ربَويّة ، في حين أجازها آخرون . وهناك مشكلات المعاهدات مع أعداء المسلمين . وهناك زواج الكتابيات من اليهوديات ، وحزمة من المشكلات التي تواجه إخواننا من أبناء الجاليات المسلمة في العالم غير الإسلامي . والمسلم يطمئن إلى الاجتهاد الجماعي أكثر من اطمئنانه إلى فتاوى الأفراد من المفتين ، وهذا موقف سليم ومنطقي من جانب الأفراد .

● والمؤتمرات لا تسمح لأحد بحضورها إلا إذا قدم بحثاً في الموضوع المطروح، ونال تقدير لجان الفحص العلمية . وهذه البحوث تنمّي قدرات الباحث والداعية ، وتفيد إخوانه المشاركين في المؤتمر ، وربما نُشرت بحوث المؤتمر في كتاب مفيد.

● والمؤتمرات مناسبة للتعارف بين الدعاة والعلماء والوقوف على أحوال البلاد المسلمة ، وفتح طرق المراسلة عن طريق «الشبكة» الدولية . لكن علينا أن نتذكر أن المؤتمرات المفيدة لها نُظم وشروط ؛ وبغيرها تصبح سياحة للرسميين ومجاملة لكبار الموظفين ، ولا فائدة علمية تذكر من ورائها .

* * *